مجلة الحكمة للدراسات الأدبية و اللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 12/ العدد 01 (2024)، ص 127- 139

الحس المأساوي وتداعيات الذاكرة في فضاء المدينة

رواية (الغار) جميلة طلباوي –أنموذجا–

The sense of tragedy and the repercussions of memory in the city space The novel(the laurel) by jamila talbaoui

مخفي إكرام

المركز الجامعي نور البشير البيض (الجزائر)، Ikrammekhfi44@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/03/15 تاريخ القبول: 2024/03/28 تاريخ النشر: 2024/04/01

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على فضاء المدينة في ظل المحنة التي عرفتها الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي؛إذ حاول الروائيون الجزائريون رصد مختلف تحولات الحركة الاجتماعية والسياسية وانعكاساتها على الفرد من خلال توظيف الفضاء المديني في قالب أدبي يعتمد على الرؤية الواقعية، ومن هؤلاء الروائيين نجد "جميلة طلباوي" التي صورت لنا هموم الإنسان وآلامه في مدينة القنادسة/بشار إثر انفجار المنجم الذي ذهب ضحيته الألاف من شباب هذه المنطقة.

من هذا المنطلق سنحاول تتبع الرؤية المأساوية من زاوية هذا الفضاء الذي استطاع أن يعكس معاناة الشخصيات السردية داخل هذا الفضاء.

كلمات مفتاحية: المدينة،الفضاء،المأساة،الرواية الجزائرية،الغار.

Abstract:

This study aims to shed light on the city space in light of the ordeal that Algeria experienced during the French occupation, as Algerian novelists tried to monitor the various transformations of the social and political movement and their repercussions on the individual by employing the urban space in a literary form based on a realistic vision, and among these novelists we find "Jamila Talabawi" who depicted for us human concerns and pain in the city of Al-Qanadisa/Bechar ollowing the mine explosion, which killed thousands of young people in this region.

From this standpoint, we will try to trace the tragic vision from the angle of this space, which was able to reflect the suffering of the narrative characters within this space.
Keywords:the city;the space;the tragedy;the Algerian novel;the cave.

1. مقدمة:

المدينة ذلك الفضاء الممتد الرحب الواسع بأطرافه العمرانية المتنامية ومساحاته المبنية، تشكل بؤرة الأحداث الروائية التي قد تجذب النفس الإنسانية وترغب الاستقرار فيها، وقد يضطهدها ويقهرها لتنفر منه؛إذ أضحت هذه الأخيرة مركزا مهما في مجال المقاربات السردية للرواية العربية بعامة، والجزائرية بخاصة، فشكلت اهتمام النقاد واختلفوا في توظيف هذا الفضاء السردي، فتباينت أراءهم بين مؤيد ومعارض طبقا لأيديولوجيتهم ومعتقداتهم المتباينة والمتضاربة في آن واحد.

لقد شهدت الجزائر وطأة المحتل الفرنسي ومرت بسنين عجاف من قتل وتدمير ودمار وحرق واغتصاب، فتعرض شعبها لأنواع العذاب بمختلف أشكاله، وتعد رواية "الغار تغريبة القندوسي" للأديبة الإعلامية جميلة طلباوي من النماذج الروائية الجزائرية المعاصرة التي استحضرت مأساة من مآسي الثورة الجزائرية؛إذ عبرت هذه المأساة عن صورة فجائعية لانهيار منجم الحديد في مدينة القنادسة على العاملين الذين لم ينجوا منهم أحدا، فنخرت هذه الفجيعة قلوب أهاليهم وأحبائهم،حيث تمازجت هذه الأحداث في قالب سردي مخضب بالحزن ليأسر ذائقة القارىء الأدبية، لتتجاوز النمط السائد لمفهوم المدينة بعدها بعدا جغرافيا، لتنساق إلى مساحات خيالية سحيقة لتقول للإنسان من هو الإنسان ؟ من هذا المنطلق إلى أي مدى استطاعت الروائية أن تعبر عن عمق هذه المأساة ؟

2.المدينة؛ مركز العذاب ومقاومة الذات

تشكل المدينة الموقع الذي تتحرك فيه الشخصيات، لكن هذا الفضاء قد ينعكس على الذات الإنسانية" **جراء ما يطرأ على المدينة من عنف، يطال الشخصية المرعوبة والمكان المتهاوي**"[1]

(شريف حبيلة،2004،ص16)فإما أن تقاوم هذا العنف المسلط عليها،أو تبحث عن مأوى بديل يقيها من المعاناة والانكسارات.

إن حضور المدينة في رواية "الغار" يتخطى ذلك البعد المكاني إلى مستوى دلالي يجعل منها فضاء للأزمة والمأساة القهرية بكل أبعادها، يعاني البطل حمصة من ويلات المحتل ووحشيته؛إذ أنه لم ينعم بطفولته مثل أترابه وجد نفسه أمام هذا العالم المتوحش،تقول جميلة على لسان الرواي:**"هو منذ صغره ورغم اللثغة في لسانه كلن يدرك بأن هؤلاء العساكر جاؤوا ليدنسوا أرضه ويغتصبوها"**[2](جميلة طلباوي،2021،ص17) عاش مأساة وتحمل مسؤولية فاقت عمره فكبر قبل الوقت" **يذكر حمصة كل هذا في ليلة أخرى قد كبر فيها واشتد عوده وشهد معاناة جده وإصابته بالسليكوز، رغم ذلك مازال جلول الكلب يستفزه وينهره كلما رآه مقبلا على الحياة واعيا بما يفعله المحتل الفرنسي ببلدته"**[3](جميلة طلباوي،2021،ص90) وعلى الرغم من المأساة التي تعيشها الشخصية الجذع/حمصة وفي ظل الخوف الذي طغى على أبناء مدينته مسلوبي الشجاعة والجلد لمواجهة العدو، إلا أنه لم يستسلم إذ **"صار أكثر ما يشغل تفكيره وضعية مدينته الصغيرة التي احتلها عساكر الاحتلال الفرنسي،كثيرا ما تساءل بين وبين نفسه عن صمت الأهالي عن المغتصب ومعاقبة الضحية،هم حسب رأيه لا يختلفون عن هذا المحتل الغاشم"**[4](**جميلة** طلباوي،2021،ص17) فهو مفعم بالكبرياء والقومية العربية والنخوة التي أبادها المحتل الفرنسي وحاول طمسها في نفوس الشخصيات إذ أن الرواية" **لا تسرد أحداثا بل تعري بمرارة واقع حال، ولا تضع بين أيدينا شخوصا عادية، بل ترسم لنا أطياف بشر أبادت إرادتهم السلطة القاهرة لثقافة الاذعان والاستسلام والخضوع، فما عادت سوى دمى لا إرادة لها في تغيير مصيرها على الأرض"**[5](إبراهيم الحجري،2012).

وقد صور لنا الروائي الحال المأساوي الذي يطبع سكان مدينة القنادسة الذين يعيشون الفقر المدقع ويتسولون العمل ولو عند العدو في سبيل الحصول على لقمة العيش **"ولهذه الرومية حكاية**

فهي زوجة أحد عساكر الاحتلال الفرنسي الذي اضطرت الفاقة وقلة ذات اليد منصورة للعمل في بيتها كخادمة،(...)فكثيرا ما خدمت في بيوت الفرنسيين الذين احتلوا بلدتهم الهادئة مقابل لقمة طعام وملابس مستعملة والحليب والسكر والدقيق، وفي أحيان قليلة بعض القطع النقدية القليلة"[6](جميلة طلباوي،2021،ص11) هم يعيشون كالتمثال الحجري حياة ميتة لا روح لهم ولا أهداف يسعون إليها، تائهون ترهبهم رشاشات العدو،في انتظار الفجر المشرق والحرية "**إنها نظاما متكاملا محكما من قيم الشر والانحطاط(...) وبؤرة لاستلاب الإنسان وتغريبه عن إنسانيته ووعيه لذاته"**[7](عبد الصمد زايد،2003،ص116) التي تعيش اضطرابا نفسيا جراء المعاناة التي تتعرض لها.

أصبحت هذه المدينة العريقة مكانا للاغتصاب والنهب وطمع للمحتلين ولكل وافد أجنبي نظرا للثروات الطبيعية التي تزخر بها ويتجلى ذلك عبر المقطع السردي"**والدها كان يردد على سمعها بأن تراب العفاريت معجزة منذ ان عثر عليه جبار القندوسي ملتصقا بحجرة الملح الأبيض،لم يختلط سواده مع بياض الملح حتى صار كنزا يتهافت عليه الفرنسيون وأصدقاؤهم من الأوروبيين الذين غزوا القنادسة ينهلون من الغار كنزه الأسود"**[8](جميلة طلباوي،2021،ص16). وهذا مشهد تصويري لحال المدينة التي احتلها المستعمل الفرنسي واستنفذ ثرواتها الطبيعية مستغلا عرق جبين أبناءها"**وكثيرا ما صرح الحاكم الفرنسي في القنادسة بأن فرنسا استطاعت ان تشعل أول مصباح في افريقيا بالقنادسة بفضل الفحم الحجري وبأن لها فضلا على الأهالي فهي التي قضت على الظلام..."**[9](جميلة طلباوي،2021،ص16) إنه اعتراف صارخ على استغلال الثروات والتمتع بخيرات البلاد وتهميش أبناء المدينة و بين غطرسة المركز /أبناء المعمرين الذين يتمتعون مقابل الرفاهية والرخاء التمتع بخيرات البلاد،"**كيف لفرنسا المستعمرة أن تنير هذا العالم،في حين تزج بأبناء بلدتهم في ظلمات الغار،هل يمكن لفرنسا أن تقدم عملا يحمل خيرا لهذه البلدة، وهي**

منذ حلت بها عساكرها انقلب نهارها إلى ليل دامس من الفقر والجوع والمعاناة "[10](جميلة طلباوي،2021،ص16)لتنشأ علاقة جدلية بين المركز والهامش.

وعلى الرغم من العذاب والانكسارات التي تتعرض لها الشخصيات؛ إلا أن المدينة القلب النابض الذي لن يتخلى عنها الشخصية/حمصة بسهولة ولو كلفه النفس والنفيس وقف متحديا مواجها لجلول الكلب، فتغذو نفسية البطل مفعمة بالشجاعة والبطولة يقول صارخا: **"هذي بلادنا وهذي خيراتنا لازم نطرد الرومي الكلب أنتم السراق سرقتم بلادنا"**[11] (جميلة طلباوي،2021،ص74)

3.المدينة؛ فضاء للموت والفجيعة وانحطاط القيم

ومع رواية المأساة يتعرض المكان للتشويه، ويصبح فضاء للعنف والفجائعية وتهديد لاستقرار الشخصية/عزيزة وماحل بها من دمار نفسي وجسدي الذي ألحقه بها جلول الكلب الذي اعتاد على العبث بشرف فتيات المدينة، وكانت إحدى ضحاياه فخنقها الخوف من الإفصاح ليصور الكاتب الطابع المأساوي إذ" **تركض عزيزة حافية القدمين وكأن ذئبا يلحق بها، تناهى إلى سمع حمزة صوتها وهي تبكي،أما الحالة التي خرجت بها عزيزة إلى الشارع فكانت صادمة لمن رآها،فستان ممزق وقدمتان حافيتان،ارتمت تحت نخلة تشد شعرها وتبكي بمرارة،فكرت في قتل نفسها، في الهروب من المدينة"**[12](**جميلة طلباوي،2021،ص90**) فتعاني الشخصية من قسوة المكان، فتحس بالضياع والخوف واللاوجود وذلك **"الأمر الذي يربك الذات ويلقي بها في موقف تصارعي مقيت، يتجلى الصراع ما بين الخارج المرعب والداخلي الكئيب"**[13](عقاق قادة،2001ً،ص290).أين نفسها أمام وضع معقد وصعب تنفث آهات وتعتصر ألما لتنطوي على ذاتها وتخفي حقيقتها في انتظار مصير لا تعرفه وقبضة فضاء همجي قاس.

وتغدو المدينة فضاء للموت والفجيعة؛ إذ شكل جلول الكلب مصدر كل البلاءات والنوائب التي حلت بأفراد مدينة القنادسة " **حيث أن عمال المناجم على بساطتهم حفظوا عن**

ظهر قلب تاريخ 1917 كتاريخ مشؤوم...فهو التاريخ الذي استخرجت فيه أول كمية من الفحم،والضريبة دفعها العمال البسطاء الذين انهار عليهم المنجم وقضوا في يوم لبست فيه القنادسة وشاح الحزن" [14](جميلة طلباوي،2021،ص20)كان هذا الحدث المأساوي غيهبا مريرا في ذاكرة كل أفراد المدينة الذين استلموا وتجردوا من قوتهم بعد فاجعة أبناءهم وما تعرضوا إليه من عنف وسياسة للتجويع المفتعلة من قبل المحتل الفرنسي، فظلت الذاكرة مرهونة بالماضي وقساوة صوره التي لن يمحيها الزمن ولو طال لأن **"الإنسان بذاته أخرس، والصورة هي التي تتكلم، لأن الواضح أن الصورة وحدها هي التي تستطيع مجاراة الطبيعة"**[15](عبد الحميد هيمة،ص95).

وفي الضفة الأخرى في المركز الاستعماري نجد الاحتفال وساسية التطبيل قائمة تطبقها شخصية الحركي جلول الكلب الذي قدم الولاء للوطن وكان كالتابع الأمين للحاكم الفرنسي فرنسيس، يبديان البهجة والسرور كلما استخرجوا الفحم **"في الوقت نفسه كان جلول الكلب يحتسي النبيذ مع فرانيس احتفالا بكمية الفحم التي استخرجت ممزوجة بدماء معمرو عبد الهادي، الحسين وبلخير والآخرين "**[16](جميلة طلباوي،2021،ص102) هذه الشخصية المحتالة التي تفتقد للمروءة والشهامة؛إنها خيانة الأمانة في كنف الوطن الذي جعله فريسة سهلة للمحتل الأجنبي، ورحب به بالدخول وجعله يتربع على عرش الوطن ويتفنن في تعذيب أفراده،ويستنزف خيراته ليستفيد منه هذا الدخيل **"ذلك الانفجار المشؤوم الذي مازال دويه يحدث الرعب في نفس الأهالي،كانت الأتربة تنهال عليه وعلى العمال الذين كانوا يسعلون بشدة، معمر الوحيد الذي تبول في تلك اللحظة ...أما بقية الرجال فلقد سالت دماؤهم بحرارة أقوى،التراب كان ينهال ايذانا بقرب الانهيار لتسيل دماء شباب كانوا يحلمون بركوب دراجة هوائية ..كانوا يحلمون بالحرية"**[17](جميلة طلباوي،2021،ص102) في تهميش وموت أبناء الوطن، والإعلاء من قيمة الدّخيل –الأجنبي– وتركه يجول المدينة دون رقابة ولا حسبان **"وفي مكان كهذا تضيع الشخصيات،**

ولاتعرف طريقها ولا موقعها...يلازم الشخصية الشعور العدمي الوجودي للنزعة،وهو مؤشر لحال الضياع والمعاناة الشديدة من الوضع الذي انتهى إليه المكان الذي يتحول إلى مكان غريب مهدد بارد مصمت"[18] (إبراهيم الحجري،2015،ص56)لأنه مهدد لأمن الإنسان واستقراره.

4. المدينة الحلم؛المآل والأمل المترقب

وينبثق الأمل مع المدينة الحلم التي ستغدو بمثابة الوطن المفقود ليرتمي في أحضانه فالمدينة الحلم فضاء للذكريات الجميلة وتحقيق الذات **"حلم يأخذ شرعية حضوره من حيث ارتباطه بالجذور الخفية للذات، أي الهوية والانتماء الحميمي للمكان الأول المفقود"** [19](بركة الأخضر،2002،ص92) الذي فقده ويملأ فراغه الروحي والمادي به، كلما اغترب في زمنه الموحش، يقول الشخصية حمصة متحسرا عن ذكريات جميلة في وطنه المفقود المرجو عودته كما كان سابقا خاليا من أشكال العنف والدمار، حالما باسترجاع حريته المسلوبة وفي هذا الصدد يقول: **"القنادسة بير ودلوها بعير، اللي داخلها ما يخاف واللي خرج منها ما يخاف واللي بغا لهنا يجي لهنا "**[20](جميلة طلباوي،2021،ص59) دعوة لزيارة هذه المدينة التي كان عنوانها الفرح والسرور لترتدي وشاح الحزن بعد أن جردها المحتل من رداء الهناء.

يقدم الروائي صورة للمدينة تعود إلى حقبة ماقبل الاستعمار، يعزي بها القارئ بل وسكانها في نوع من الجمال والدقة في التصوير، يتمنى كل قاطن ألا ينجلي هذا الزمن الجميل " **القنادسة 1929الواحة الصغيرة تنام على سفح جبال البرقة كصبية فاتنة غفت مأخوذة بسحر المكان الحالم صوت الآذان يرتفع من صومعة المسجد أصوات تعزف سمفونية العوينة أو مدينة القنادسة"**[21](جميلة طلباوي،2021،ص9) ومن خلال هذا الوصف يتجسد التضاد بين الصورتين صورة أولى مثّلت ماضي المدينة قبل أن يغزوها المحتل، وأخرى مرّرت حقيقة حاضرها الذي دنسه المستعمر الغاشم؛ ولهذا التضاد دوره في كشف حقيقة مآل مدينة العوينة/القنادسة؛ فهي مرتع

للاحتلال ولا تمت لماضيها النقيّ الحافل بالمنجزات والسير الطيبة والمشرفة، غدت تحمل دلالتين على اختلاف الفترات الزمنية (الماضي/ الحاضر).

وتصبح مدينة بشار فضاء للصمود والقوة، المآل للخلاص من العبودية؛ ليقرر الالتحاق بها لتكون الأمل المترقب لأجل الظفر باستقلال لمدينته/القنادسة التي تعثر معها الوجود بعد اضمحلال روح والمبادرة والشجاعة التي يفتقرها أهل مدينته ليتأرجح دوره بين المدينتين وكان وسيطا بينهما مندفعا بكل قوة وحماس «**ويتوجه إلى بشار ليقصد مركز المجاهدين يسلمهم رسائل السي العربي،وينفذ ما يصدرونه من أوامر له في جمع التبرعات، في بشار اكتشف حمصة عالما آخر،مدينة أخرى اكتشف حي الدبدابة وواحة تامهدي والوادي المجاور لها اكتشف زنقة النيمرو،وبالخصوص أولئك الذين يجتمعون في "المركز" والذي عبارة عن بيت من طوب يقع في أحد أزقة حي الدبدابة يملكه المجاهد السي الشيخ"**[22](جميلة طلباوي،2021،ص107)

أضحت هذه المدينة الجديدة متنفسا للحرية المسلوبة "**فحرية الإنسان هي جوهر وجوده والقيمة الأساسية لحياته"**[23](رشيد بن مالك،2006،ص131) إنها المدينة التي يجد فيها كيانه أين يلتحق بالثوار بعد أن فر من مدينته بسبب سياسة الصمت والخوف التي ينتهجها الأهالي؛ ليبحث عن ذاته ووسيلة لاسترجاع الحرية المسلوبة، وقد جسّدت هذه الرواية تقاطبا مكانيا بين المدينة البائسة/المدينة الصمود، وقد عمقته الشخصية بإيديولوجية واعية بما يجري ، فيغدو الفضاء فاعلا في امتداد الفعل السردي داخل الرواية.

4. خاتمة: أعطى فضاء المدينة صورة حقيقية مستمدة من الواقع الملموس والمرئي عن الأوضاع التي عاشتها الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي؛حيث شكل هذا الفضاء مرادفا للموت والانهيار والتردي الأخلاقي؛مما ولد علاقة انفصال بينه وبين الشخصيات نتيجة لما يحمله من قيم جديدة وايديولوجيات متناقضة.

5. قائمة المراجع:

حبيلة،شريف، (2004)، الرواسة والعنف دراسة سوسيوبنائية في الرواية الجزائرية المعاصرة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.

طلباوي،جميلة،(2021)،الغار تغريبة القندوسي،دار خيال للنشر والتوزيع،الجزائر.

الحجزي،ابراهيم،(2015)،الرواية العربية الجيدة،دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع،دمشق.

زايد عبد، الصمد،(2003)،المكان في الرواية العربية(الصورة والدلالة)،دار محمد للنشر والتوزيع،تونس.

قادة،عقاق،(2001)،دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر،اتحاد كتاب العرب،دمشق.

هيمة،عبد الحميد،(دط)،علامات في الإبداع الجزائري،دار رابطة القلم،الجزائر.

الأخضر،بركة،(2002)،الريف في الشعر العربي-قراءة في شعرية المكان-،دار الغرب للنشر والتوزيع،الجزائر.

بن مالك،رشيد،(2006)،السيميائيات السردية،دار مجدولاي للنشر والتوزيع،الأردن.